التميّز اللّغويّ في النّمط السّرديّ لرواية "الخنازير" لعبد الملك مرتاض

The language distinction in the narrative style of the novel “The Pigs” by -Abdul Malek Mortad-

الطالب: يونس بوناقة

إشراف :د/طاطة بن قرماز

جامعة الشلف

ملخص البحث:

تدعو بنا لزوماً الضَّرورة حين مدارسة واقع الرّواية العربيّة المعاصرة أن نخرم نواميس النّص السّرديّ العربيّ، والجزائريّ منه بخاصّة، لنحاول –إلى حدّ ما– استجلاء مدى تواشج هذا النّمط من النّصوص الأدبيّة بالبعد الاجتماعيّ من جهة، واضطلاعه على البناء الإبداعيّ الفنّيّ من جهة أخرى، وإنه ومما مراء ألبتة أنّ الرّواية هي من أرحب النّصوص السّرديّة، وأكثرها تداولاً وقراءة بين أوساط الدّارسين للأدب العربيّ، –وعلى اختلاف أضربها–، فقد باتت الرّوايّة جملة نصوص أدبيّة تصويرية يحيك من خلالها الرّاويّ أو السّارد واقع المجتمع وحاله، من عسر حال أو يسره، وليس يتمّ هذا الغرض إلاّ بواسطة لغة أدبيّة إبداعيّة فنيّة مائزة، وقد وفّق قلّة قليلة من الرّوائيّين الجزائريّين في هذا الشّأن، ويبقى أبرزهم النّاقد الخِرّيت عبد الملك مرتاض، وذلك من خلال ما كتبه في روايته الشّهيرة "الخنازير".

ومن هنا، تروم هذه الدّراسة البحثيّة إلى استجلاء البعد الفنّيّ الإبداعيّ الكبير للّغة السّرديّة عند الملك مرتاض في روايته "الخنازير"، وكيف ساهم ذلك النّسج اللّغويّ السّامق والتّصوير الأدبيّ الفنّيّ الرّفيع في تصوير واقع المجتمع الجزائريّ المعيش في فترة ما، وإلى أيّ حدّ وفّق عبد الملك مرتاض في ذلك التّصوير من خلال لغته السّرديّة المائزة في روايته "الخنازير" ؟ وهذا ما ستسعى إليه هذه الوريقات البحثيّة بالإجابة عنه والفلي في كوامنه قصد إيضاحه.

الكلمات الدّالة:

الرّواية الجزائريّة المعاصرة، البعد الاجتماعيّ، لغة السرد، اللّغة الإبداعيّة، عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، محاكاة الواقع، التّصوير الأدبيّ الفنّيّ، السّرد.

Research Summary:

The necessity to study the contemporary Arabic novel is inviting us to violate the texts of the Arabic narrative rules, especially the Algerian text, to try to clarify –to a certain degree- the interwined of this type of literary texts with the social dimension, on the other hand its conducting with the artistic creative construction. Without doubt, the novel is one of the largest descriptive texts; the most widely read among the scholars of the Arabic literature, with its difference kinds. The novel has become a collection of literay texts, through which the narrator draws the reality and situation of the society, harsh or easy. And this propose is only done by a special literary artistic language. A few of Algerian novelists has been successful in this regard, and remains the most prominent critic (unequaled) Abdul Malik Mortad, through what the wrote in the famous “Pigs novel”.

Hence, this research study aims at clarifying the great creative artistic dimension of the narrative language in Abd al-Malik Murtad in this novel “The Pigs” , and how the linguistic weaving, and the high artistic literature is contributed in portraying the reality of Algerian society living in a period, and to what extent “Abdelmalek Murtad” is successful in portraying through his special narrative language in his novel “Pigs” ? And this sought by these research papers to be answered and look for its implicitly to clarify.

Key words:

Contemporary Algerian novel, social dimension, narrative language, creative language, Abdelmalek Murtad, Pigs novel, reality simulation, literary artistic photography, narration.

على امتداد سنين متباعدة متطوّرة من الزّمن ظلّت تطوّريّة الرّواية العالميّة على اختلاف أنواعها تتلوّن وفق تلوينات متنوّعة إلى أن انبنت في صورتها التّامّة اليوم، فراح الكتّاب لها/ فيها يصطبغون بحروفهم أشكالا وأزياء متباينة للرّواية، فكتب بعضهم في الرّواية الأدبيّة، والرّواية العاطفيّة، والرّواية البوليسيّة، واختصّ بعضهم الآخر في التّحبير في الرّواية التّاريخيّة، والسّياسيّة، والوطنيّة، والواقعيّة، وإنّ هذا التّباين في الكتابات الرّوائيّة هو ما جعل منها من أرحب النّصوص السّرديّة وأكثرها إقبالا من لدن الدّارسين اليوم، ويبقى من أكثر أنواع الرّواية تداولا بين أوساط النّقاد والدّارسين قراءة أو نقدا على حدّ سواء؛ الرّواية الواقعيّة، ويرجع كثير من النّقاد للنّص السّرديّ مردّ هذا الاهتمام من لدن النّاقد أو القارئ معا بالرّواية الواقعيّة دونما سواها من باقي الرّوايات الأخراة إلى علّة تتمثّل أساسا في أنّ هذه الأخيرة (الرّواية الواقعيّة) إنّما تسعى سعيا مباشرا إلى تقديم خدمة اجتماعيّة إنسانيّة للمجتمع، وكذا إسهامها المباشر –وإلى حدّ واسع جدّا– في نشر القيم السّمحى، وبث الأخلاق الحميدة في القرّاء والدّارسين لها، وذلك من خلال تطرّقها لمختلف القضايا والمسائل الاجتماعيّة المنتشرة وسط مجتمع ما المجتمعات الحيّة.

ومعلوم بين أوساط الباحثين والدّارسين في غمار النّصوص السّرديّة، اليوم، أنّ عناصر الرّواية تكاد لا تختلف عن عناصر النّصوص السّردية الأخراة؛ ومنها السّارد، الشّخصيات، والأحداث، والأزمنة والأمكنة، العُقدة، والحوار، والحبكة، وينضاف إلى تلكم العناصر المكوّنة لأيّ رواية من الرّوايات عنصر الخيال والأسلوب اللّغويّ، وهذا ما نجده مختلفا من روائيّ لآخر، فمنهم

من كان أميل في خطابه السّرديّ إلى لغة بسيطة لا تمثل إلى الشّعريّة أو الفنّيّة في أكثرها وهي الشّائعة تداولا بين أوساط الرّوائيّين الأوائل، ومنهم من تتخلّل نصوصه الرّوائيّة لغة شعريّة فنّيّة جماليّة تأثيريّة محمّلة بأثقال من التّخييلات والتّلوينات الفنّيّة، فتجعل من الرّواية لوحة جماليّة فنّيّة تأثيريّة هادفة معا، وإن كان الضّرب الثّاني من أنواع الرّوائيين يكاد يكون قليلا في العصر الحديث.

وممّا يجمع عليه جلّ الدّارسين للأدب العربيّ اليوم أن أدبنا العربي المعاصر بات يحفل بأقلام أدبيّة مائزة مضت تبج بحور الدّرس الأدبيّ على اختلاف علومه وأفانينه، إذ ذهب بعضهم يفلي ما ورد في الدّرس اللّسانيّ أو النّقديّ أو البلاغيّ أو النّحويّ وهلمّ جرّا على باقي العلوم الأخراة قديمها وحديثها، يستفيض فيها بالبحث أو التّفحّص، وراح البعض الآخر يكتب في مختلف أجناس الأدب من شعر ورواية وقصّة وقصّة قصيرة، فتمتزج حينها كتاباته بين التّنظير والإجراء، أو بين الكتابة ونقد الكتابة، ويبقى من أبرز تلكم الأقلام التي ما لبثت تصدح عاليّا في سماء أدبنا العربيّ عامّة، والجزائريّ بخاصّة؛ النّاقد الخِرِّيت، والرّوائيّ البارع عبد الملك مرتاض، فقد استأثرت هذه الشّخصيّة الرّوائيّة المعاصرة بنصيب وافر من الدّراسة والقراءة من لدن الدّارسين اليوم، نظرا لملامسة اللّغة السّرديّة عند هذه الشّخصية الأدبيّة السّامقة للواقع المعيش للمجتمع، وإذ ذاك مربط الفرس في تعريف الرّواية كما وردت عنده في كتابه (في نظريّة الرّواية) بقوله: "الرّواية عمل قابل للتكيّف مع المجتمع"[1]، فهذا بيان على مدى تواشج الرّواية وعُلقتها بالحياة الاجتماعيّة، إذ هي تصوير تمثيليّ للواقع المعيش بثوب لغويّ أدبيّ بارع، يحاول من خلالها الرّاوي أو السّارد تقريب صورة الواقع المَعيش في مجتمع ما من المجتمعات في زيّ لغويّ يرسم بحروف رنّانة، ولغة شعريّة إلى حدّ ما، وهذا هو دأب الرّوائيّ البارع عبد الملك مرتاض في كثير من أعماله السّرديّة، وذلك هو الذي ميّز كتاباته السّرديّة عمّن سواه من الرّوائيّين الذي جايلوه.

ومن النّقاد من يرى أنّ الرّواية هي من أرحب النّصوص الحكائيّة السّرديّة وأكبرها، بل ومنهم من ماثلها للملحمة إلى حدّ ما، ولعلّ من أقرب التّعاريف دلالة، وأوثقها عُلقة بما ذُكر، والتي قدّمت في الرّواية ما ذكره مصطفى هدارة في مؤلّفه (دراسات في النّثر العربيّ الحديث) عن تعريف الرّواية في قوله: "هي أكبر أنواع القصص من حيث طولها، ولكنّ الطّول ليس وحدها هو يميّز الرّواية عن القصّة أو الأقصوصة، فالرّواية تمثّل عنصرا وبيئة، أيّ أنّ لها بعدا زمنيّا من المألوف أن يكون زمانها طويلا ممتدّا، بل ربّما اتّسع البعد الزّمنيّ، فاستغرق عمر البطل أو أعمار أجيال متتابعة"[2]، فالرّواية، إذن، من أرحب النّصوص السّرديّة الحكائيّة وأشسعها من حيث تراكيبها أو حتّى من ناحية دلالاتها، فالرّواية لأشدّ استفاضة في توظيف اللّغة الكثيفة دلاليّا، وهذا ما قد نجده قليل الورود في باقي الأصناف السّرديّة للنّصوص الحكائيّة.

ولعلّ الحديث عن النّصوص السّرديّة العربيّة المعاصرة حديث عن الإبداع والإمتاع والفنيّة، بل وإنّه لحديث عن روعة حبك للّغة، وجودة تصوير ومحاكاة من الواقع إلى التّمثيل، كلّ هذا تجد الرّواية العربيّة المعاصرة تتمثّل فيه، وتتقمّصه، وتتلوّن وفق تلويناته، ولا ريب أنّ المتطلّع للكتابات الروائيّة لبعض الرّوائيّين المتميّزين في الجزائر يجد ما ذكرناه آنفا يبدو جليّا، ومن دون أدنى كدّ ولا عناء، فها هو الرّوائيّ عبد الملك مرتاض في مختلف كتاباته السّرديّة يمزج ما بين اللّغة الأدبيّة الجافّة حينا، ويصوّر باللّغة الشّعريّة حينا آخر، وهذا الامتزاج لا يغيب حين تصفّح القارئ ولا يغفل عنه وقت تلقّي الرّواية، إذ هو باد بشكل بارز جدّا.

ومن الواجب علينا قبل الولوج في الحديث عن مدى تميّز اللّغة الرّوائيّة المرتاضيّة في مختلف أعماله السّرديّة، وفي الرّواية منها بخاصّة، أن نقدّم مفهوم الرّواية عنده، وكيف قدّم تصوّرها أو مفهومها عنده؟ وما مدى مصاقبة هذا التّعريف لما يكتبه عبد الملك مرتاض في مختلف أعماله السّرديّة، والرّوائيّة منها خصوصا، حيث قدّم صاحب رواية "الخنازير" تعريفا شاملا كاملا للرّواية، وإنّنا لنراه من أرحب التّعاريف وأشسعها ممّا قُدّم فيها من تعاريف، فقال في مؤلّفه

(في نظريّة الرّواية بحث في تقنيات السّرد): "إنّ الرّواية نشء جديد، وعالم بديع. هي من إنشاء الرّوائيّ. هي العالم الخاصّ الذي يتأوّب الكاتب الرّوائيّ فيخرجه لغة كأنّها تصوّر واقع التّاريخ، وحقيقة الفلسفة..."[3]، فلعلّ مردّ تعريف عبد الملك مرتاض إلى أنّ الرّواية إنّما هي محاكاة للواقع وتصوير عاكس له بمختلف حيثيّاته، ولا يكون ذلك التّصوير إلاّ باللّغة الأدبيّة التي نراها تختلف من روائيّ لآخر، فمنه من تكن لغته أقرب للبساطة حدّ لغة التّخاطب اليوميّة، ومنهم من يرقى بلغته الرّوائيّة إلى ملامسة النوع الأكثر إقبالا عند القرّاء وترحابا به، وهي اللّغة الشّعريّة، ولعلّ عبد الملك مرتاض عمد إلى مزج اللّغتين معا في مختلف كتاباته السّرديّة، إلاّ أن توظيفه للّغة الشّعريّة في بعض روايته ومنها رواية "الخنازير" كان باديا بشكل جليّ لكلّ قارئ لما جيء فيها، وفي تضاعيفها.

وممّا أمسى معلوما بين الباحثين أنّ فعل الكتابة ليختلف من كاتب لآخر، وإنّه لمعهود كذلك بين أوساط النّقاد والدّارسين على السّواء أنّ الكتابة السّرديّة إنّما هي إبداع من سارد، وهذا السّارد تجده يتملّص من نواميس اللّغة المعياريّة المُحدَّدة المُقنّنة ليلج عالم اللّغة الشّعريّة في أكثر الأحايين، ولعلّ اللّغة الشّعريّة هي اللّغة التي تدفع بالقارئ إلى دهاليز التّأويل والتّفسير المتعدّد، وهي ما تجعل له قسطا وافرا في المساهمة من الانبناء الكليّ للعمل، وكذلك هي رواية "الخنازير" التي جاء بها عبد الملك مرتاض في أواخر ثّمانينيات هذا القرن، محاولا تصوير واقع مجتمعه في هذه الحقبة من الزّمن، وموظّفا لغة أقل ما يقال عنها اللّغة الحكائيّة المشفّرة، وعلّة ذلك نرجعها أساسا إلى طغيان عنصر التّرميز في مختلف تضاعيفها، وذلك ما يفتح الباب على مصراعيه أمام المتلقّي، ويجعله مفتوحا أمامه على عمليّة التّأويل، وبذلك تقوى دلالة ما ذكره مرتاض في ثنايا روايته.

ويجرّنا الحديث عن التّأويل وهو وشيج العُلقة بالرّواية أو النّص الحكائيّ الرّوائيّ بأنّ نستدلّ بما ذكره الباحث اللّسانيّاتيّ التّونسيّ عبد السلام المسدي في هذا الصّدد في مؤلّفه (فضاء التّأويل)

ومدى تعالق اللّغة بالتّأويل، وإنّ هَمّنا، ههنا، اللّغة السّرديّة وتواثقها بعمليّة التّأويل، فذكر عبد السّلام المسدي قوله: "ثمّ باللّغة نتأوّل الوقائع والأحداث فنرتقي إلى تأويل الظّواهر عسى أن نتأوّل الوجود؟ وما الوجود؟ هذا الأقرب منّا والأبعد منّا، في كلّ زمن ندرك شيئا من حقائقه، وما ندركه لا يكاد يروى ظمأ. إذ أتيت آخر كلمة ممّا بين يديك فلا تنس أن تستعيد ذلك السّؤال. غامض صوبه خفيف النّفس، واترك وراءك ممّا ما علموك من أشباه ونظائر، هذا ما ينسب وهذا لا ينتسب. فغذا الحدود بارزة تضيق بها المُهج كلمّا همّت بالطّيران. فكلّ شيء إلى شيء بسبب. دع القواسم وجلّ النّظر سوّحا بلا قيد ولا وهن. فالكون إن لم تحكمه حكمك والهمّ إن لم تطرده أسرك. واللّغة حوريّة مهرها ما قدّمت لها لا ما أخّرت..."[4]، فلعلّ أكثر ما نجده متصّلا بالقول، ههنا، بالنّص الرّوائيّ لعبد الملك مرتاض، ونعني به رواية "الخنازير" انفتاحه على التّأويلات الجماليّة الجمّة، وهو ما يضفي عليها بعدا واسعا للحمولات الدّلاليّة في الرّواية، وذلك ما نراه يمتّن البعد الإحساسيّ أو الشّعوريّ لدى القارئ أو المتلقّي عموما، ومن ذلك نلفي قول الرّاوي في مقطع من مقاطع الرّواية: "أنت المناضل تعطي بنتك لخنزير مستحيل ونسيت هو مدير الشّركة، أوف أيّ واحد يمكن.. المناصب فقدت قيمتها أيّ واحد يمكن أيّ شيء زمان الأكتاف نحن نعرف هذا.. حتّى واحد ما يخضعها"[5]، فجليّ أنّ ما استعمله عبد الملك مرتاض في هذه السّطور الحكاياتيّة الرّوائيّة تداخل اللّغة البسيطة حدّ العامية حينا باللّغة الفصيحة حدّ الشّعريّة الجماليّة حينا آخر، وهذا ما ألبس هذه السّطور السّرديّة زيّ الوظيفة الإفهاميّة التّأثيريّة، ولا ريب في أنّ متلقّي هذا المقطع إنّما نراه يستوجب عليه استحضاره للموقف، وذلك ما صادفناه في مقاطع عديدة من الرّواية، وإن كنّا نعلم بأنّ التّأويل واستحضار الموقف يكاد الواحد منها يتمّم غاية الآخر، ولعلّ هذا ما نجده في الرّواية ككلّ باديّا، وقد أشار إلى ذلك محمد التّازي في مقاله (مفهوم الرّوائيّة) إلى هذا المقام، وذِكره في أنّ الرّواية من كونها جنسا أدبيّا مائزا فإنّها أيضا تفكّر "في نفسها ككتابة، وتسائل عناصرها البنائيّة والسّرديّة من خلال السّؤال حول البداية التي تفتتح بها الأحداث الرّوائيّة،

والنهاية التي تختتم بها، وزمن المحكيّ، ومنح الاستظهار للقارئ الضّمنيّ الذي يتصوّر النّص أنّه يتلقّى الرّواية، وكيف يتلقّاها، وأيضا من خلال استحضار الواقع بالمتخيّل"[6]، وهذا الرّأي وارد وإلى حدّ بعيد جدّا، وممّا لا خلاف فيه ألبتة، عن مدى عُلقة النّص الرّوائيّ بعنصر التّأويل أو بالأحرى انفتاح النّصوص الرّوائيّة على عمليّة التّأويل، وهو ما التمسناه جليّا في رواية "الخنازير" لعبد الملك مرتاض.

ومن جهة أخرى، فلعلنا لا نبالغ في القول شططا إذا ما قلنا بأنّ رواية "الخنازير" للرّوائيّ البارع عبد الملك مرتاض قد مثّلت قفزة رائجة من بين جلّ كتاباته السّرديّة، حيث بات الرّاوي في تلكم الرّواية الممتعة الهادفة يُلبِس لغته أثوابا غير المعتادة في نصوصه السّرديّة التي سبقت هذا الرّكح الرّوائيّ المائز، فبدت لغته الشّعريّة الجماليّة طافية على سطحها ومتخلّلة في أحايين أخرى بلغة بسيطة حدّ اللّغة المباشرة السّلسة، ولعلّ المتطلّع على ما كتبه صاحب رواية "الخنازير" يلحظ جليّا وكأنّ اللّغة تأتيه مطواعة، فلا تكلّف فيها ولا تصنّع، فتارة تراه يميل إلى عنصر التّرميز أو التّقنيع لتقوية الدّلالة على المراد إيصاله إلى القارئ، وتارة تلفه بلغة بسيطة ينسج الرّواي أحداثا كان يعيشها المجتمع الجزائريّ في حقبة الثمانينيات، فقد وضع للرّواية شخصيات مختلفة، وأطّرها بأزمان وأمكنة محدّدة، وحيّزها في ظروف شائكة أحيانا ومنفرجة أحيانا أخرى، وأطلق على شخوصها ترميزات تتصاقب ومكانته داخل المجتمع، سعيّا منه إلى توسيع معنى دلالة ما ضّمنه في روايته هاته.

لطالما مثّلت اللّغة الشّعريّة (ونقصد من جهة أخرى الكتابة الإبداعيّة بشكل أعمّ) عند عبد الملك مرتاض هوسا وشيج الصّلة متعاضدا ومناحي نفسيّته المختلفة، وكثيرا ما ربط النّقاد فعل الكتابة والجانب البسيكولوجي للكاتب، وهذا منذ وقت مبكّر جدّا من تاريخ النّقد العربيّ، وفي ذلك قولهم: "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك..."[7]، نظرا لما لمراعاة الجانب النّفسيّ من أثر بارز في إنجاح البعد التّصويريّ للعمل الأدبيّ، وكذلك كان شأو الدّارسين في

العصر الحديث عن وجوب مراعاة فعل الكتابة والجانب النّفسيّ للكاتب حدّ التّماهيّ بينها في الفعل الأدبيّ، وبخاصّة السّرديّ منه، والرّواية بشكل أخصّ، فذكر بعضهم في هذا الصّدد: "إنّ فعل الكتابة هوس مشفوع بانعتاق المشاعر والأفكار في لحظات من التّحرّر من الذّات، لأنّ الكتابة هي تعرية الرّوح، تجلِد الكاتب إذا لم يحسن بناءها لتصبح آلة قادرة على تشييع اللّحظة إلى أبديتها"[8]، فالقارئ لرواية الخنازير يجد السّارد أو المصوّر لها لها يحيك واقعا معيشا لمجتمعه مقولبا إيّاه في شكل تمثيليّ كان قد حدّد الرّاوي له الشّخوص، والأزمنة، والأمكنة، والظّروف المسيجة له ككلّ، وكلّها منشطرة إلى عناصر جوانيّة وأخرى برانيّة في روايته تِيكَ، إلاّ أنّ الباديّ في الرّواية، والبارز علنا، طغيان اللّغة التّرميزيّة حينا كأن يوظّف لفظة (الخنزير) على ذلك الرّجل البيروقراطي المتسلّط باسم منصبه الإداريّ، وتوظيفه أيضا لرمزيّ حكاية ألف ليلة وليلة (شهريار وشهرزاد)، وراح يصطلح الرّاوي على كلّ فاسد في حكمه، هَكَّ الأخلاق خائن لوطنه بمسمّى (الحركيّ أو ابن الكلب)، ومن ذلك قوله: "... يلائمها ابن الحركيّ، أحوال متائبة يجترّ عقدة أبيها، وأبوها أبوه عدوان للشّعب لا يغنيان للثّورة، أبوك؟ جرفة السّين باعة الحركيّ دلّ عليه المظليّين أبوه قتل أبوك، أبوها؟ يختلس أموالهم أموالك الشّعب أنت"[9]، فتوظيف عبد الملك مرتاض في هذا المقطع واستعماله للفظتي (ابن الحركيّ) وفي ذلك المقام لهو دلالة صريحة لمعنى الخيانة ونقض الميثاق، وعلى كلّ ما له صلة بالباطل والفساد، وبالتّالي أعطى هذا التّوظيف لهاتين اللّفظتين حمولة دلاليّة مُثقلة بشحنات وعواطف ثائرة تصوّر المَحكيّ عنه تصويرا يلامس فيه الرّاوي الواقع محاكاة تكون أميل للحقيقة، وذلك من خلال اللّغة السّرديّة المائزة التي تتّسم بها كتابات مرتاض السّرديّة.

وغير بعيد عن متن الرّواية وما جاء فيها على لسان كاتبها ومصوّرها ومخرجها الرّوائي الفذّ عبد الملك مرتاض، فرواية "الخنازير" عدّها كثير من النّقاد العرب المحدثين نقلة أو قفزة رائجة في تاريخ كتابات عبد الملك مرتاض السّرديّة، حيث أشار حسين خمري إلى هذا الشّأن في قوله

عن تحوليّة النّمط السّرديّ عند عبد الملك مرتاض من التّقليديّ المتداول بين أوساط الرّوائيّين الذين جايلوه أو من كانوا قبله إلى المبتكر المخترع عنده في كتاباته السّرديّة، وبخاصّة في روايتي "الخنازير" و"صوت الكهف" بأنّهما: "نتاج لرؤية بضرورة التّجديد والتّمرّد على مبادئ النّمطية المباشرة والواقعية الفجّة وكانت وثيقة الصلة بتقنيات الرّواية الجديدة الفرنسيّة وإنجازاتها النّظريّة"[10]، فتغيّر مسار الكتابة السّرديّة عند الملك مرتاض من النّمط اللّغويّ المتداول عند كثير من الرّوائيين الذي كتبوا في الرّواية وممّن كانوا في عصره إلى النّمط اللّغويّ الجماليّ أو الشّعريّ في أعماله الرّوائيّة المتأخّرة إنّما نرجعه أساسا إلى مدى نضجه الفنّيّ، وهو الواضح جليّا في استعمالاته للّغة الشّعريّة الفنّيّة في روايته "الخنازير" على سبيل المثال.

لقد أشار عبد الملك في غير موضع واحد في كتابه (في نظريّة الرّواية بحث في تقنيات السّرد) عن مدى قرب النّص الرّوائيّ من الواقع أو المحيط الاجتماعيّ للأفراد في المجتمع أو ككيان واحد، بحيث يرى أنّ الرّواية إنّما هي عكس الواقع في زيّ تمثيليّ فنّيّ لغويّ، وهو ما أبان عليه في قوله: " أنّ الرّواية تبدو كأنّها مؤسّسة أدبيّة ثابتة الكيان. فهي الجنس الأدبيّ الذي يعبّر، بشيء من الامتياز، عن مؤسّسات مجموعة اجتماعيّة، وبنوع من رؤية العالم الذي يجرّه معه، ويحتويه داخله. ومن الآية أنّ الرّواية تعدّ شكلا من أشكال التّعبير الاجتماعيّ"[11]، فهذا التّعبير اللّغويّ المتمثّل في الكتابات السّرديّة الرّوائيّة قد يفلح فيه تمثيلا كاتب ما وقد يخيب كاتب آخر، إلاّ أنّه ومن الرّوائيين من نلتمس في كتاباتهم الرّوائيّة تميّزا جليّا، واستمازة واضحة، وهم من جعلوا حرفهم النّاطق عن حال المجتمع الذي يعيشون فيه، فمضوا ينثرون دررا لفظيّة وتمثيلات متقلة التّصوير قصد معالجة قضيّة اجتماعيّة ما، وذلك هو شأن ما كتبه عبد الملك في رواية "الخنازير" حين تطرّقه إلى قضيّة جوهريّة كان يعيشه وطنه مع طبقة ما من الطبقات الفاسدة أو الماجنة التي كانت تتسيّد آنذاك، وهم البيروقراطيين، فمثّل لرأس هذه الطبقة برمز الخنزير، ومفهوم الخنزير عموما لدال على الفساد والخراب والهدم لا الإصلاح والبناء، وقد حمّل توظيف هذا الرّمز اللّغويّ

الدّال في الرّواية أبعادا إديولوجيّة بعيدة، وكان توظيفه أبعد ما يكون من الصّحة على تبيين الوضع السّائد آنذاك.

ولقد نوّه كثير من النّقاد العرب المحدثين إلى طبيعة انبناء الرّواية وما تضطلع عليه وتتأسّس على أساسه، من الفكرة إلى غاية الانتهاء أو التّخريج النّهائيّ لها، مرورا بالحدث، ومن ذلك ذَكره النّاقد مسعد بن عيد العطوي في كتابه (السّرد فكرا وبناء) في قوله: "تقوم بنية الرّواية على محاور متعدّدة منها الفكرة، وسياق الفكرة الاجتماعيّ والثّقافيّ، ومنها المقصديّة والغايات التي يريدها السّارد، وممّا يؤثّر فيها الحدث. فالحدث وفاعليته، وسعة مكوّناته، وقوّة وقعه على إنسانيّة الإنسان، أو القيم، كلّ ذلك ممّا يسهم في بنية الرّواية"[12]، وأمّا هذه فهي بنية اللّغة بشكل أوليّ قبل الخوض في حيّز التّصوير أو التّمثيل، أو بالأحرى إسقاط المسرود على الواقع، فثمّة عناصر أخراة يضطلع عليها النّص الرّوائيّ، بل وإنّها لسنامه، وقد ذكرها مسعد بن عيد العطوي في قوله: " ... ثمّ تتشكّل كلّ هذه المعطيات في اللّغة ونصوصها المتنوّعة بحسب الشّخصيات والحوار، والانفعال، والصّراع، والقدرة اللّغويّة التّصويريّة، ثمّ هي تخضع السّارد وقدراته على منح النّص الذّاتيّة أو إحالته إلى فكر اجتماعيّ"[13]، فإذا ما أسقطنا كلّ هذه العناصر والإقونات الواجب توفّرها في أيّ عمل روائيّ كان على رواية "الخنازير" لعبد الملك مرتاض لألفيناها متكاتفة متضافرة متواشجة في تِيكَ الرّواية لتشكّل ككلّ بنية سرديّة وهّاجة الحرف، مستنيرة اللّغة، شاعريّة التّصوير، هادفة لمغزى، مقرّبة لمعنى، ولعلّ أنّ ما يلحظه القارئ لتلكم الرّواية مدى شعريّة اللّغة السّرديّة فيها حينا، وعدولها عنها للّغة البسيطة في أحايين أخرى، ولعلّ هذا التّمازج في التّوظيف اللّغويّ في الرّواية بين الشّعريّ منها أو الأدبيّ والعاديّ المتداول هو ما أصبغ الرّواية بتلوينات جماليّة فنيّة تأثيريّة إبداعيّة مائزة.

ويبقى في الأخير أن نشير إلى أنّ اللّغة الرّوائيّة عند الرّوائيّ البارع، والنّاقد الحصيف عبد الملك مرتاض إنّما هي مرآة عاكسة لمدى إبداعيّته في اللّغة، ووصوله إلى مرحلة نضج فنّيّ كبيرة

في أكناف النّص السّرديّ، فاستمازته دونما سواه من الرّوائيّين الذي جايلوه إنّما كانت للغته الشّعريّة النصيب الأوفر من تلكم الاستمازة، فقد استطاع هذا الرّوائيّ البارع المبدع أن يفتق الكلمات ويدفق من خلالها أحاسيسه ومشاعره حيال تطرّقه لقضيّة اجتماعيّة بارزة من القضايا التي شاعت في عصر ما في وطنه، وهي ذيوع البيروقراطيّة وتهميش الطّبقات الكادحة والفقيرة من المجتمع، حيث سعى الرّوائي عبد الملك مرتاض في تصوير وتمثيل هذه القضيّة الأخلاقيّة الإنسانيّة قبل كلّ شيء في حيّز زمانيّ ومكانيّ ذو أبعاد جماليّة تأثيريّة تلقي بظلالها حين تلقّي النّص من لدن المتلقّي، فحاول عبد الملك مرتاض نقل الأمر من الواقع إلى عالم التّخييل أو الكتابة بلغة سحريّة أخاذة، وإن كانت تتخلّل الرّواية في الأغلب كلمات من العاميّة، وكان لهذه الأخيرة الأثر الفنّيّ، والبعد الأسلوبيّ في التّخريج التّام للرّواية.

وبهذا تبقى رواية "الخنازير" نقلة رائجة في مسار الكتابة السّرديّة عند عبد الملك مرتاض، ولعلّ أكثر ما جعلها تكون أكثر ما تتداوله أقلام النّقاد فيها لغتها المائزة، ذات الحمولة التّأويليّة المكثّفة، المفضية في الآن نفسه إلى توسّع مجال الدّلالات أو المعاني عند المتلقّي، وهذا أهمّ ما تصدح به الدّراسات النّقديّة المعاصرة وجوب أن يُضمَّن المتلقّي في جوانيّة العمل الأدبيّ ليملأ فجواته وثغراته، ولعلّنا لا نبالغ في القول شططا إذا ما قلنا بأنّ الرّوائيّ البارع عبد الملك مرتاض قد يكون وُفِّق إلى حدّ بعيد في دمج متلقيه في دخلانيّ روايته، وذلك من خلال الطّرح الفنّيّ لها، ويكأن القارئ يعايش ويعيش ما يقرأ من خلال استحضاره لما يتتبّعه من أحداث في الرّواية، فيتشاكل ويَلِج النّص كمساهم أساسيّ في عمليّة تلقّيها. وإلى هنا، فإنّ كتابات عبد الملك مرتاض السّرديّة وجب على الدّارسين اليوم فلْيُها واستظهار مكتنزاتها والتّنقيب عليها.

مراجع البحث:

1- عبد الملك مرتاض، في نظريّة الرّواية بحث في تقنيات السّرد، د.ط، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، 2005.
2- عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، د.ط، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1985.
3- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، دار الفكر للجميع، بيروت، 1968.
4- مسعد بن عيد العطوي، السّرد فكرا وبناء، ط1، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، إربد الأردن، 2014.
5- حسين خمري، سميائيّة الخطاب الرّوائيّ، تجليات الحداثة، مجلّة علميّة يصدرها معهد اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة وهران، العدد 3، الجزائر.
6- عبد القادر توزان، هاجس الكتابة النّقديّة عند الرّوائيّ عبد الملك مرتاض في ضوء النّظريات النّقديّة (رواية "الخنازير" أنموذجا)، مجلة اللّغة والاتصال، العدد السّادس عشر، جامعة وهران الجزائر، 2014.
7- مصطفى هدارة، دراسات في النّثر العربيّ الحديث، ط1، دار العلوم العربيّة، القاهرة، 1992.
8- عبد السلام المسدي، فضاء التّأويل، ط1، دار الصّدى، دبي الإمارات، 2012.
9- محمد التازي، مفهوم الرّوائيّة، مجلة الوحدة، تصدر عن المجلس القوميّ للثّقافة العربيّة، باريس، العدد 49، 1988.

(1) – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، د.ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005، ص 48.
(2) – مصطفى هدارة، دراسات في النثر العربي الحديث، ط1، دار العلوم العربية، القاهرة، 1992، ص 39/38.
(3) – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ص 5.
(4) – عبد السلام المسدي، فضاء التأويل، ط1، دار الصدى، الإمارات، 2012، ص 16/15.
(5) – عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 95.

(6) – محمد التازي، مفهوم الروائية، مجلة الوحدة، تصدر عن المجلس القومي للثقافة العربية، باريس، العدد 49، 1988، ص 96.

(7) – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، دار الفكر للجميع، بيروت، 1968، ص95.

(8) – عبد القادر توزان، هاجس الكتابة النقدية عند الروائي عبد الملك مرتاض في ضوء النظريات النقدية (رواية "الخنازير" أنموذجا)، مجلة اللغة والاتصال، العدد السادس عشر، جامعة وهران الجزائر، 2014، ص 29.

(9) – عبد الملك مرتاض، رواية الخنازير، ص 46.

(10) – حسين خمري، سميائية الخطاب الروائي، تجليات الحداثة، مجلة علمية يصدرها معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، العدد 3، الجزائر، ص 175.

(11) – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ص 48.

(12) – مسعد بن عيد العطوي، السرد فكرا وبناء، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد الأردن، 2014، ص 24.

(13) – المرجع نفسه، ص 24.